النظرية البنائية الوظيفية

تمهيد:

تمثل البنائية الوظيفية في النظرية الاجتماعية أحد المعالم الرئيسية في علم الاجتماع الأكاديمي الحديث، بل وأحد الاتجاهات الأكثر رواجا في علم الاجتماع، في كل من الولايات المتحدة، وأوروبا على الأقل، وإن كانت مسلماتها قد انتشرت في بقية العالم.

1- الجذور التاريخية للبنائية الوظيفية:

يميل الكثير من علماء الاجتماع إلى القول بأن المصدر الأساسي للبنائية الوظيفية إنما يعود إلى أعمال كل من "راد كليف براون" و"مالينوفسكي". إلا أن هناك علماء اجتماع آخرين ينتقدون مثل هذا الرأي، في ربط ظهور البنائية الوظيفية بالأنثروبولوجيا الثقافية، من منطلق أن أصحاب هذا الرأي إنا يشوهون الحقيقة، في محاولة منهم لإخفاء الطابع الإيديولوجي المحافظ لها. ذلك أن البنائية الوظيفية، إنما تستمد جذورها من الاتجاه العضوي، الذي كان سائدا في النظريات الاجتماعية الأولى في علم الاجتماع. هذا الأخير الذي تخلى عنه علماء الاجتماع بعدما أصبح مثلما يقول " مارتيندل " اتجاها سيئ السمعة وموصوما بوصمة الرجعية أو المحافظة. فالمسلمة الأساسية التي تعتمد عليها البنائية الوظيفية والتي تدور حول فكرة تكامل الأجزاء، والاعتماد المتبادل بين العناصر المختلفة للمجتمع، هي ذاتها الفكرة التي كانت تدور حول لها فكرة الاتفاق العام عند "أوغست كونت"، وفكرة التكامل الذي يصحب التمايز عند "سبنسر" وفكرة توازن المجتمع عند " باريتو"، وهي ذات المسلمة التي كانت موجودة في أعمال "دوركايم" أيضا.

وفي عبارة أخرى فإن البنائية الوظيفية تعد بمثابة إعادة صياغة لأفكار ومسلمات قديمة تعود إلى القرن التاسع عشر، أي أن المؤسسين الحقيقيين لها هم علماء الاجتماع الأوائل من الوضعيين العضويين، حيث تعتمد الوظيفية بصورة أساسية على فكرة النسق العضوي، التي كانت قد اعتمدت عليها النظريات العضوية، وهي الفكرة التي تقول: بأنه يمكن النظر إلى كل شيء باعتباره نسقا، أو كلا متكاملا يتكون من أجزاء مثل الكائن الحي.

2 - مسلمات البنائية الوظيفية :

على الرغم من وجود عدد كبير من علماء الاجتماع، من الذي ينتمون إلى البنائية الوظيفية، أمثال: بارسونز، ميرتون، جورج هومانر، ماريون ليفي وغيرهم مع ما يوجد بينهم من اختلافات، إلا أنها تعتمد على مسلمات أساسية أو محورية هي:

2-1: يمكن النظر إلى أي شيء كان سواء كان كائنا حيا، أو اجتماعيا - فردا، أو جماعة، أو تنظيما رسميا، أو مجتمعا، أو حتى العالم ككل على أنه نسق أو نظام (System) وهو يتشكل من عدد من الأجزاء المترابطة فيما بينها.

2-2: أن لكل نسق احتياجاته الأساسية لا بد من تلبيتها أو إشباعها، وإلا فإن هذا النسق سيفنى أو ستغير تغيرا جوهريا (المجتمع مثلا يحتاج لأساليب لتنظيم السلوك: القانون، الأسرة التربية الأطفال...إلخ

2-3: لا بد للنسق أن يكون دائما في حالة توازن، ولكي يتحقق هذا التوازن لا بد للأجزاء أن تلبي احتياجاته المختلفة.

2-4: أن كل جزء من أجزاء النسق يمكن أن يكون وظيفيا فيساهم في تحقيق توازن النسق، مثلما يمكن أن يكون ضارا وظيفيا أي يقلل من توازن النسق، مثلما قد يكون غير وظيفي أي عديم القيمة بالنسبة للنسق.

2- 5: أنه يمكن تحقيق كل حاجة من حاجات النسق بواسطة عدة بدائل أو متغيرات (حاجه المجتمع لرعاية الأطفال يمكن مثلا أن تقوم بها دور الحضانة وحاجة المجموعة إلى التماسك تتحقق عن طريق التمسك بالتقاليد، أو عن طريق الشعور بالتهديد الخارجي.

2 - 6: أن وحدة التحليل هي الأنشطة أو النماذج المتكررة، فالتحليل الوظيفي لا يحاول مثلا شرح كيف ترعى الأسرة أطفالها ولكنه يهتم بكيفية تحقيق الأسرة كنظام لهذا الهدف.

3- المفاهيم الأساسية للبنائية الوظيفية:

تقوم البنائية الوظيفية إلى جانب جملة أخرى من المفاهيم ذات الصلة على مفهومين أساسين هما: الوظيفة الاجتماعية والبناء الاجتماعي.

3 -1 الوظيفة الاجتماعية: قبل الإشارة إلى المعاني التي استخدمت لها كلمة وظيفة، وجب التذكير بأنه قد أعطيت لها عده دلالات ومعاني التي بقيت في بعض الأحيان مضمرة، في حين وفي مواقف

أخرى استخدمت هذه المفردة لتغطية دلالات متباينة ومنفصلة، من ذلك مثلا أن الوظيفة في علم الأحياء وعلم النفس تتضمن فئة خاصة من النتائج.

أما في علم الاجتماع فقد استخدمت أيضا بعدة معاني ومنها:

- الإسهام الذي يقدمه الجزء للكل، قد يكون المجتمع أو الثقافة وهذا هو المعنى الذي استخدمها به دوركايم، راد كليف براون، ومالينوفسكي.

- الإسهام الذي تقدمه الجماعة إلى أعضائها، أو الإسهام الذي يقدمه المجتمع الكبير للجماعات الصغيرة التي يضمها.

- تستخدم للإشارة إلى دراسة الظاهرات الاجتماعية باعتبارها عمليات أو آثار لأبنية اجتماعيه (أنساق القرابة، الطبقة).

- تستخدم باعتبارها معيارا للأداء، أو معيارا متفقا عليه للفاعلية والتأثير مثلما عرفها " نادل" "Nadel"

- تستخدم للدلالة على الفاعلية، أو التأثير، أو حتى على النتائج أو الآثار conséquences مثلما هي الحال عند " ميرتون" " Merton"

عموما وبغض النظر عن الاختلافات الموجودة بين هذه المعاني، التي أعطيت لمفردة، أو لفظ الوظيفة فإنها جميعاً تؤكد على تحقيق غاية، أو هدف، أو نتيجة، وتحديدا فكرة أهمية ما يؤديه، أو يقدمه الجزء إلى النسق ككل، بغض النظر عن نوعيه هذا النسق، أو ذاك، من الأنساق، التي يهتم أصحاب النظرية البنائية الوظيفية بتحليلها. ذلك أن الوظيفة: "هي الدور الذي تؤديه الجزء في المياه الاجتماعية، وفي الكل الاجتماعي الذي هو البناء الذي تتألف من أجزاء أول أنساق اجتماعية تتوافق فيما بينها". (عبد المعطي، ص 104)

2-3: البناء الاجتماعي:

وهو المفهوم الثاني في النظرية البنائية الوظيفية، بعد مفهوم الوظيفة الاجتماعية، ويقصد به" مجموعة العلاقات الاجتماعية المتباينة التي تتكامل وتتسق من خلال الأدوار الاجتماعية. فثمة مجموعة أجزاء مرتبة منشقة تدخل في تشكيل الكل الاجتماعي، وتتحدد بالأشخاص والزمر والجماعات، وما نتج عنها من علاقات، وفقا لأدوارها الاجتماعية يرسمها لها الكل، وهو البناء الاجتماعي".

وتجدر بالمناسبة الإشارة هنا إلى ملاحظتين حول مفهوم البناء الاجتماعي.

أ- **الملاحظة الأولى**: وهي تلك التي قال بها "ر. ردفيلد " R. Redfield والتي تكمن في أن من استخدموا هذا المفهوم لم يستخدموه بمعنى واحد. فقد استخدموا عدة أفكار وتصورات مختلفة بشأنه.

ب- **الملاحظة الثانية**: أنه ومنذ أن قدم "راد كليف براون" "R. Brown" أحد رواد هذا الاتجاه محاضرته عام 1940 بعنوان " في البناء الاجتماعي" لم يطرأ أي تغيير، أو أية تطويرات جوهريه، على هذا المفهوم ما عدا بعض الاشتقاقات منه على منوال البناء التحليلي، البناء الواقعي، وغيرها من التفريعات الأخرى. حيث يشير البناء التحليلي إلى: البناء الذي يحدد مظاهر (أو هيئات) يتعذر فصلها واقعيا عن مظاهر أو هيئات محددة أخرى، فإذا عرفنا مثلا: المظاهر السياسية بأنها توزيع للسلطة والمسؤولية، وعرفنا المظاهر الاقتصادية، بأنها توزيع السلع والخدمات، فإن البناءات الاقتصادية، والسياسية عندها ستكون بناءات تحليلية، حيث لا توجد أنساق اجتماعيه، خاليه تماما من المظاهر السياسية أو الاقتصادية. أما البناء الواقعي: أو الأبنية الواقعية: فهي تلك التي تحدد الوحدات التي يمكن فصلها ماديا (سواء في الزمان أو المكان، أو في كليهما عن غيرها من الوحدات الأخرى من نفس النوع. فالمجتمع مثلا عند تطبيق هذا المصطلح عليه هو بناء ملموس مثل شركات الأعمال، الأسر الحكومات أما الأبنية الواقعية أو الملموسة من غير المجتمعات، فهي الأبنية من الفعل التي تحدد عضوية الوحدات ضمن مجتمع معين، أو تلك التي تتعلق بمجتمعين أو أكثر. فجميعها أنساق وجميع الأبنية الملموسة أنساق اجتماعية. أي أن جميع المجتمعات أنساق اجتماعية، وأما الأنساق الاجتماعية الأخرى عدا المجتمعات، فهي إما أنساق فرعية في مجتمع معين، أو ناتجة عن التساند الوظيفي المتبادل بين مجتمعين أو أكثر. والدليل على أن تعريف "براون" للبناء الاجتماعي لم تطرأ عليه تطويرات جوهريه هو ما ذهب إليه "بارسونز" في تعريفه للبناء الاجتماعي على أنه مجموعة من العلاقات الثابتة نسبيا بين الأفراد".

إذن تعتمد البنائية الوظيفية على مفهومين أساسين هما: مفهوم الوظيفة الاجتماعية ومفهوم البناء الاجتماعي، كما على افتراض أساسي يدور حول فكرة تكامل الأجزاء، والاعتماد المتبادل بين العناصر المختلفة للمجتمع، على اعتبار أن المجتمع نسق، أو بناء يتألف من عدد من الأجزاء المترابطة، وهو يتشكل من شبع منظمة من الجماعات المتعاونة التي تتجه نحو الاستقرار، حيث تتفق حول القيم المرتبطة بالأهداف ووسائل تحقيقها.

أي أن البنائية الوظيفية كمنظور تؤكد على فكرة ارتباط أجزاء المجتمع ببعضها البعض على الرغم من استقلالها الظاهري. فهي تستمد تصورها للمجتمع من النظرية العضوية في تصورها لوظائف الأجزاء داخل البناء الكلي للكائن الحي، حيث تحاول تطبيق هذه النظرية على فهم المجتمع، وفهم الوظائف الاجتماعية التي تؤديها التنظيمات أو الأنساق الفرعية بالنسبة للبناء الاجتماعي ككل. ثم إن أصحاب هذه النظرية يرون أيضا بأن أي تغيير يحدث في أي جزء من أجزاء البناء الاجتماعي القائم على الاعتماد المتبادل بين أجزائه سينجر عنه لا محالة تغير في باقي أجزاء هذا البناء.

عموما وأيا كان الأمر، فإن البنائية الوظيفية قد تلقت سهام نقد متتالية بدءا من الحرب العالمية الثانية فكان عليها أن تطور نفسها، وتحدد معالمها من جديد، وقد كان لها ذلك، على يد بعض مفكريها من أمثال: بارسونز، ميرتون، ماريون ليفي وغيرهم. ولذلك نجد أن مفهوماتها التي بدأت محددة بالبناء والوظيفة، ظلت تلقح بعضها، ما أدى إلى تعدد، وكثرة مشتقات كل منها، لكنها مع ذلك ظلت أيضا مهتمة أكثر بالتركيز على الجوانب الثابتة من النسق أو البناء الاجتماعي، مقارنه باهتمامها بالجوانب الديناميكية او المتغيرة فيه، وحيث كانت الجوانب أو الأبعاد الثقافية له، الأكثر استخداما في التحليل والتفسير عن غيرها من مكونات النسق الأخرى.

من ذلك يمكن القول بأن فهم الوظيفية البنائية يوجب التعمق في فهم معنى مفهوم أو مصطلح "البناء والوظيفة " كونهما المصطلحين، أو المفهومين المركزيين، اللذين تعتمد أو تقوم عليهما هذه النظرية واللذين يشرحان كيف تهتم البنائية الوظيفية بتحليل البنية التحتية للمجتمع، مثلما الأدوار، والحاجات، التي يتوجب إشباعها، للحفاظ على بقاء المجتمع، او النسق الكلي واستمراره.

ثم إن البنائية الوظيفية التي تنطوي على منظور علي شامل (ماكرو) في دراستها للظواهر الاجتماعية يركز على النسق الاجتماعي ككل، مع اهتمام بالأنساق الفرعية المنضوية تحته، المتبادلة الاعتماد والمتداخلة فيما بينها، والتي تعمل على تحقيق مصلحة المجتمع ككل، ترى أيضا بأن العلاقات الاجتماعية، تتسم بالتناغم، وليس الصراع، وأما الحالة الطبيعية المجتمع فهي حاله الاستقرار، حيث يتم الحفاظ على التوازن بداخله، بفضل شتى العناصر التي يتشكل منها، والتي تتغير كي تكمل وتدعم بعضها البعض، أي أن البنائية الوظيفية تعترف بالتغير الاجتماعي، لكنه التغير الذي يتم على نحو منظم وليس بصوره راديكالية وثورية. وفي عبارة أخرى فإن البنائيون الوظيفيون يرون أن علينا أن نفهم كيف تعمل مختلف عناصر النسق الاجتماعي على الحفاظ على

المجتمع واستمراره. ولعل على رأسهم إثنين من أهم ممثلي هذا الاتجاه وأشهرهم ألا وهما عالمي علم الاجتماع الامريكيين: " تالكوت بارسونز" "Talcott Parsons و "روبرت ميرتون" "Robert Merton"

4 - أهم ممثلي البنائية الوظيفية:

4 - 1: تالكوت بارسونز:

يمكن القول بأن تالكوت بارسونز قد تأثر فكريا بأعمال كل من: دوركايم، فرويد، باريتو، وماكس فيبر إلى جانب أعمال الاقتصاديين الكلاسيكيين، علما بأنه يمكن أيضا تصنيف كتاباته تحت نظريات الفعل الاجتماعي حيث بدأ "بارسونز" كتاباته النظرية مسترشدا بـ "ماكس فيبر" على وجه الخصوص. وأما الإطار النظري لـ " بارسونز" فتمحور حول أربع (04) مفهومات أساسية هي: **الفعل الاجتماعي، الفاعل الموقف، وتوجهات الفاعل.**

4 - 1 – 1- الفعل الاجتماعي:

يرى بارسونز بأن كل فعل عبارة عن سلوك، ولكن ليس كل سلوك فعل. أما الذي يجعل السلوك فعلا فهو دخول عنصر ذاتي بين المنبه والاستجابة لذلك مثلا فإن اتجاه الفراشة نحو الضوء يعتبر استجابة آلية من جانب الفراشة لمنيه الضوء.

ومن ذلك فإن ما يميز الفعل عن السلوك أساسا هو أن الفعل تتسم بعنصر اتخاذ القرار الذي يقع بين المنبه والاستجابة.

4-1 – 2- الفاعل الاجتماعي:

الفاعل الاجتماعي يمكن أن يكون فردا، أو جماعة، أو مجتمعا. (نعيم، 2006 ص ص 204، 205)

4-1 - 3 - الموقف:

يمكن أن يكون الموقف، المسرح، أو أي طرف يكون الفاعل فيه مصدرا لاتخاذ قرار، ويختار بموجبه بين أدوار بديلة يقوم بها. ويتضمن الموقف مجموعة متنوعة من المنبهات الممكنة، وبصفة خاصة الموضوعات سواء كانت هذه الموضوعات إنسانية أو غير إنسانية إلى جانب مجموعة من المعايير التي هي أنماط من السلوك والقيم التي هي عبارة عن تصورات لما هو مرغوب فيه.

4-1-4: توجهات الفاعل: عندما يكون الفاعل في موقف معين، ويكون عليه القيام فيه بفعل معين فإن هناك ما يحدد اختياره لنوعية الفعل الذي يقوم به، وأما هذه المحددات: فأسماها بارسونز

التوجهاتorientations . أي بمعنى أننا حينما نتعامل مع الآخرين فإن هناك عده أشياء توجه أفعالنا، وقد ميَز "بارسونز" فيها بين **التوجهات الدافعة، والتوجهات القيمية**.

1- التوجهات الدافعة/ الدافعية: تشير التوجهات الدافعة Motivational orientations إلى تلك الجوانب من توجهات الفاعل نحو موقفه، والتي ترتبط بالإشباع، أو الحرمان، الفعليين، أو الممكنين، لاحتياجات الفاعل، أو هي تلك التوجهات التي تمدنا بالطاقة التي ستبذل في الفعل. وهي ثلاثة (03) أنواع:

أ- التوجهات الإدراكية/ المعرفية: وتقابل ما يدركه الفاعل في موقف معين، بالنظر إلى نسبق استعداد الحاجات need-dispositions عنده. والذي ربما يتداخل في تفكير بارسونز مع الاتجاهات.

ب- التوجهات التقويمية: وهي التوجهات التي يوزع عن طريقها الفاعل طاقته على الاهتمامات المختلفة التي يجب عليه أن يختار من بينها.

ج- التوجهات الانفعالية:cathetic وتتضمن العملية التي عن طريقها يخلع الفاعل أهمية عاطفيه أو انفعالية على شيء ما. (تيماشيف، 1983 ص 356)

2- التوجهات القيمية: ويقصد بها تلك المعايير، أو تلك الجوانب من توجهات الفاعل، التي تلزمه بأن يأخذ بعين الاعتبار إمكانية تطبيق معايير معينة، ومحكات اختيار له، عندما يكون في موقف يسمح باختيار السلوك الذي يقوم به.

مع العلم أن التوجهات القيمية تنقسم هي الأخرى إلى ثلاثة (3) أنواع وهي على النحو التالي:

أ- التوجهات الإدراكية/ المعرفية: وتتضمن الالتزام بمعايير معينة ثبت صدقها معرفيا.

ب- التوجهات التقديرية: ويقصد بها الالتزام بمعايير معينة ثبت بواسطتها ملاءمة أفعال معينه لموضوع ما انفعاليا.

ج- التوجهات الأخلاقية: وتعني الالتزام بمعايير معينة تحددت صلاحيتها على أساس نتائج الأفعال بالنسبة للنسق الكلى أو بالنسبة للمجتمع.

أي أن **التوجهات القيمية** بالنسبة لـ " بارسونز" تمثل تأثير التوقعات الاجتماعية، على تعريف الشخص للموقف. فالقيم الاجتماعية، أو التوقعات التي يشترك فيها أفراد المجتمع بخصوص أنسب الوسائل لتحقيق الغايات المرجوة، تؤثر على الجانب المعرفي للفرد، من حيث أنها تحدد له

الموضوعات التي يدركها وطريقة الاستجابة لها، مثلما تؤثر عليه – الفرد- من حيث أنها تفرض عليه الشعور بالمسؤولية عن أفعاله على أساس آثارها على المجتمع. (نعيم ص، ص 206 207)

إذن كانت هذه هي المفهومات الأربعة (04) الأساسية أي: الفعل "بارسونز" الاجتماعي، الفاعل الموقف، وتوجيهات الفاعل، التي استند إليها في بناء نظرية بنائية وظيفية عن المجتمع، والتي يرى بأن أي نسق من الأنساق يتكون منها، وبالأحرى تدخل في تكوين ثلاثة أنواع من الأنساق هي: النسق الاجتماعي، النسق الثقافي، ونسق الشخصية.

4 - 1 - 5: النسق الاجتماعي:

قدم "بارسونز" عدة تعريفات للنسق الاجتماعي، لعل من أوضحها ذلك التعريف الذي يقول فيه " والنسق الاجتماعي عبارة عن فاعلين أو أكثر يحتل كل منهم مركزا أو مكانة متمايزة عن الأخرى ويؤدي دورا متمايزا فهو عبارة عن نمط منظم بحكم علاقات الأعضاء ويصف حقوقهم وواجباتهم تجاه بعضهم البعض، وإطار من المعايير أو القيم المشتركة بالإضافة إلى أنماط مختلفة من الرموز والموضوعات الثقافية المختلفة". (نعيم، 2006، ص 207) وأما هذا النسق الاجتماعي فيتسم بخاصتين أساسيتين هما:

أ - ميل مكونات النسق إلى الحفاظ على درجة عالية من التكامل: بالرغم من الضغوطات البيئية المحيطة بها.

ب - الميل إلى التوازن: أي إلى الحفاظ على استمرارية مكونات النسق في القيام بوظائفها.

هذا وحتى يستمر النسق الاجتماعي عليه أن يواجه **أربعة (04) مشكلات أساسية**، عن طريق العناصر الأساسية التي يتميز بها، أو التي تتوفر فيه ألا وهي:

1- التكيف: ويقصد به القدرة على توجيه الموارد البيئية والاقتصادية من أجل دعم وحماية رفاهية البشر الذين يكونون المجتمع.

2- **تحقيق الهدف**: ويقصد به مجموعة العمليات المتعلقة بالتخطيط الاستراتيجي واتخاذ القرارات الخاصة بتحديد وتنظيم معالم الحياة الاجتماعية.

3- **التكامل**: أي أن يقوم النسق بخلق ونشر مجموعة القيم الأساسية التي تساعد على دعم التعاون وتحقيق التماسك الاجتماعي مع التقليل من حدة أو أخطار الصراع الاجتماعي

4- **الكمون**: ويعنى عمل النسق الاجتماعي على ضمان استمرار المجتمع، وذلك عن طريق التكاثر توارث الطقوس، والعادات، والتقاليد الاجتماعية، ومختلف الممارسات الثقافية.

هذا وأشار "بارسونز" إلى أن استمرار المجتمع في تأدية وظائفه على النحو الصحيح، مرتبط بإسهام سائر أنساقه الفرعية، في إطار النسق الاجتماعي العام، على نحو معين في إشباع احتياجاته الأساسية حيث تتفاعل الأنساق الفرعية وتتداخل فيما بينها من خلال إسهاماتها المختلفة، وفى هذا تلعب القيم الجمعية دورها في توحيد شتى الأنساق الفرعية، وضمان تماسكها، وتميزها بالتماسك لا التنافر. كما أكد على وجود ثلاث (03) عمليات تمثل أهمية مركزية، في تحقيق التزامن المتناغم في قيام مختلف عناصر المجتمع ألا وهي:

أ - عملية التنشئة الاجتماعية.

ب - عمليه الضبط الاجتماعي.

جـ- عمليه أداء الدور.

وفي هذا وفق ما ذهب إليه "بارسونز" تلعب الأسرة، إلى جانب النظام التربوي دورا محوريا في تحقيق النظام الاجتماعي، وفي الحفاظ على الوضع القائم. ذلك أن الأسرة تلعب وظيفة التنشئة الاجتماعية الأولية، وبذلك فهي تضمن عرس القيم الاجتماعية في الطفل، بحيث تصبح جزءا من ضمير الفرد، ووعيه من جهة، كما تعمل على تحقيق الاستقرار على مستوى الشخصية الذي يرتبط بعنصر الأمن العاطفي داخل الأسرة، مما يساعد على مواجهه ضغوط الحياة من جهة ثانية. وأما النظام التربوي باعتباره جسرا بين الأسرة والمجتمع ككل، فيقوم بإعداد الأفراد للأدوار التي سيؤدونها في المجتمع. فالمدرسة تعمل من خلال اختبار التلاميذ، وتقييمهم، على المواءمة بين مواهبهم، ومهاراتهم، وقدراتهم، ومن ثمة إعدادهم للوظائف التي تكون أكثر ملاءمة لهم، فكأن النظام التعليمي من خلال المدرسة، هو الآلية الرئيسية لتخصيص أدوار الأفراد في المجتمع.

2-4 روبرت ميرتون:

يمثل "روبرت ميرتون " بدوره أحد رواد النظرية البنائية الوظيفية، وهو بالرغم من اختلاف الطروحات بينه وبين "بارسونز" إلا أنهما ينطلقان من ذات المسلمات النظرية، والأيديولوجية التي يقول بها أصحاب الاتجاه البنائي الوظيفي، وأصحاب الاتجاه الوضعي من قبلهم، والذين يؤكدون على فكرة ثبات، أو استقرار البناء الاجتماعي وتكامل عناصره، أو تعاون وتكامل أنساقه الفرعية

فيما بينها ودورها في الحفاظ على النسق الكلى وعلى توازنه وتناغمه، هذا التوازن والتناغم الذي يجب ألا يعتريه أو يصيبه الخلل.

حاول روبرت ميرتون" الذي كان تلميذا لـ " تالكوت بارسونز" النزول بالنظرية السوسيولوجية من المستويات التجريدية العليا، إلى المستوى الأوسط، حيث رأى بأن النظرية السوسيولوجية، يجب أن تكون متوسطة المدى، في موقف نقدي له من نظريه " بارسونز" التي رأى بأنها شديدة العمومية، وبالغه التجريد، وبالتالي فهي لا تسمح بتحقيق المهمة الرئيسية لعلم الاجتماع، المتمثلة في إجراء البحوث الواقعية. ذلك أن علم الاجتماع برأيه ليس علما قديما، وبالتالي فهو ليس مؤسسا مثلما هي العلوم الطبيعية، لذا وجب توجيه اهتماماتنا إلى اختيار مجموعة محدودة من القضايا الإجرائية القابلة للاختبار والمتعلقة بمواقف محددة.

أما تعريف "ميرتون " **للنظرية المتوسطة المدى** فهي تلك النظرية التي **تقع بين طرفين**:

- **الطرف الأول**: ويتمثل في مجموعة الافتراضات العملية البسيطة التي نقابلها عند إجراء البحوث أو الدراسات الميدانية.

- **الطرف الثاني**: ويتمثل في النظريات الشاملة، التي تسعى إلى تفسير كل ملاحظة عن السلوك الاجتماعي، والتنظيم الاجتماعي.

بمعنى أن **النظرية متوسطة المدى** عند " ميرتون" نظرية تتناول جوانب معينة من الظاهرات الاجتماعية، وليس الظاهرات الاجتماعية في عمومتها. فمثلا يمكن أن تكون لدينا نظرية عن الجماعات المرجعية، ونظرية عن الحراك الاجتماعي، ونظرية عن صراع الأدوار، وهكذا إلى أن يصبح لدينا من النظريات المتوسطة المدى التي ستمكننا في المستقبل من صياغة نظرية عامة موحدة. وبهذا يكون " ميرتون " قد أعلن تخليه عن نظرية سوسيولوجية عامة، حيث طرح في كتابه: " النظرية الاجتماعية والبنية الاجتماعية" منظومة الباراديغمات أو (النماذج) المتنوعة للتحليل الوظيفي على مستوى الأنساق أو الوحدات الاجتماعية الملموسة.

فـ "ميرتون " يعتقد أن المدخل الوظيفي في علم الاجتماع مدخل سوسيولوجي واعد، وإن كان لا يزال لم يحقق بعد الانجازات التي كان عليه تحقيقها، ومرد ذلك أن هذا المدخل تنقصه في الحقيقة الدقة المنهجية ويظهر ذلك في المفاهيم والافتراضات التي يقوم عليها. ولذلك عليه أن يعالج هذا

الغموض، وأن يوضح المفهومات، كما يقدم للباحث قائمة تحدد له ما ينبغي أن يهتم به، في دراسته للظواهر وفق ما يتطلبه المنظور البنائي الوظيفي.

هذا ويؤكد "ميرتون، على أن مفهوم الوظيفة الذي يشكل أحد المفاهيم المحورية بالنسبة للبنائية الوظيفية بقي غامضا ودون تحديد، إذ جرى استخدامه بمعان مختلفة، حيث المعنى الشائع للوظيفة هو المهنة، أو الأنشطة المرتبطة بدور، أو بعمل معين، بل وقد يشير تجريديا، إلى الدوافع، والمقاصد، والأهداف. ولذلك عمد "ميرتون" إلى اقتراح تعريف لهذا المفهوم – الوظيفة- حيث عرفها على أنها: " تلك النتائج أو الآثار التي يمكن ملاحظتها، والتي تؤدي إلى تحقيق التكيف والتوافق في نسق معين". والوظيفة بهذا المعنى مثلما يرى "ميرتون" لها مؤشرات موضوعية قابله للملاحظة. يجب عدم الخلط بينها وبين الأهداف، أو الدوافع. فهدف الزواج مثلا يختلف عن وظيفته، كما أن الأسباب التي يقدمها الناس لتفسير سلوكياتهم، تختلف عن نتائج هذه السلوكيات بالنسبة للنسق الاجتماعي، هذه النتائج التي يمكن ملاحظتها.

كذلك انتقد "ميرتون " غيره من أصحاب الاتجاه الوظيفي وبخاصة "راد كليف براون" و"مالينوفسكي" اللذين كانا قد افترضا بأن الممارسات الاجتماعية المقننة (الأدوار، النظم، والأنشطة الاجتماعية) وكل المعتقدات المقننة (العناصر الثقافية) وظيفية بالنسبة للمجتمع، أو بالنسبة للنسق الاجتماعي، أو النسق الثقافي ككل. فهذا الافتراض برأي "ميرتون " غير صحيح، ذلك أن الكثير من العناصر قد تكون لا وظيفية بالنسبة للنسق ككل، وتكون وظيفية بالنسبة لجزء فقط من أجزاء هذا النسق. ولذلك يجب أن تكون مناقشة الوظيفة، أو النتائج، يضيف " ميرتون" مصحوبة بتحديد الوحدات الاجتماعية، لأن ما هو وظيفي بالنسبة لجماعة ما، أو لمجتمع، أو نظام معين، قد لا يكون كذلك في ظروف أخرى.

وبناء على ذلك يكون "ميرتون " قد أقام نظريته على ثلاثة (3) افتراضات وأساسية بديلة وهي:

1- أن العناصر الاجتماعية أو الثقافية يمكن أن تكون وظيفية بالنسبة لمجموعات معينة وغير وظيفية بالنسبة لمجموعات أخرى، بل وضارة وظيفيا بالنسبة لمجموعات غيرها، أي بمعنى ضرورة تعديل فكرة أن كل عنصر اجتماعي أو ثقافي هو بالضرورة وظيفي بالنسبة للمجتمع بأكمله.

2 - أن كل عنصر قد تكون له وظائف متعددة، وأن نفس الوظيفة يمكن تحقيقها بواسطة عناصر مختلفة (مثال الملابس التي يمكن أن تؤدي عدة وظائف مختلفة وظيفة الوقاية من الطقس،

وتكسب الفرد مكانه اجتماعيه معينه كما أن لها دور في تحديد مدى جاذبيته) وهو ما أسماه " ميرتون" بالبدائل الوظيفية.

3 - يجب أن يحدد التحليل الوظيفي الوحدات الاجتماعية التي تخدمها العناصر الاجتماعية أو الثقافية. ذلك أن بعض العناصر قد تكون ذات وظائف متعددة، وقد تكون بعض النتائج ضارة وظيفيا.

والواقع أن "ميرتون " قد ناقش في مؤلفه الشهير: "النظرية الاجتماعية والبناء الاجتماعي" العديد من الأسس التي يقوم عليها التحليل الوظيفي. وأما من بين أهم الإسهامات التي قال بها في هذا المجال فنجد تلك التفرقة، أو ذلك التمييز، الذي أقامه بين كل من **الوظائف الظاهرة، والوظائف الكامنة** حيث:

1 - **الوظائف الظاهرة**: وهي تلك النتائج الموضوعية التي يمكن ملاحظتها، والتي تساهم في الحفاظ على النسق، أو تلك النتائج التي تحدثها سمه اجتماعية أو ثقافية معينة، أو تلك النتائج التي تفرض على الأفراد تبنيها والتكيف معها، وهي بالتالي نتائج متوقعة.

2 - **الوظائف الكامنة**: وتشير إلى النتائج غير المقصودة أو غير المتوقعة. وعلى سبيل المثال: إذا كانت الوظيفة الظاهرة للاستهلاك الاقتصادي هي الانتفاع، فإن تحقيق الهيبة والمكانة الاجتماعية هي إحدى الوظائف الكامنة لهذا الاستهلاك.

جدير بالذكر هنا أن "ميرتون " لم يستحدث مفهوم الوظيفة الظاهرة، ومفهوم الوظيفة الكامنة، ولكنه استعار هذين المفهومين من "فرويد" الذي كان قد استخدمهما في التمييز بين المحتوى الظاهري (أي الشعوري) والمحتوى الكامن (أي اللاشعوري) للحلم.

كذلك من بين المفهومات الأساسية التي أولاها "ميرتون" عناية خاصة نجد:

1 - **مفهوم البدائل الوظيفية**: أما قيمة هذا المفهوم فتكمن في التنوع الممكن للوسائل التي تشبع الحاجات.

2 - **مفهوم المعوقات الوظيفية:** أو الأضرار الوظيفية، والتي تعني تلك النتائج التي يمكن ملاحظتها والتي تحد من تكيف النسق وتوافقه.

وأما **معالم النسق البنائي الوظيفي** عند " ميرتون " فتتضح في دراسته الشهيرة عن البناء الاجتماعي والأنومي، التي اهتم فيها بدراسة السلوك المنحرف، وذلك بتطبيق نظرتيه البنائية الوظيفية، في

تحليله للمصادر الاجتماعية والثقافية للسلوك المنحرف، أين سعى لمعرفة كيف يمارس البناء الاجتماعي ضغوطا محددة، على أشخاص معينين في المجتمع، لممارسة سلوك غير امتثالي، أو سلوك منحرف، بدلا من ممارستهم لسلوك امتثالي، أو سوي، في محاولة لرفض تفسيرات الانحراف التي ترتكز على أسس فردية أو سيكولوجية.

وضمن هذا المسعى سلم " ميرتون" بأن الأبنية الاجتماعية والثقافية، تصوغ صفة المشروعية على أهداف معينه، كما تحدد أساليب بعينها تكون مقبولة لتحقيق هذه الأهداف، وفي هذا يكون "ميرتون " قد ميّز بين عنصرين رئيسين فيها، أو ما أسماه بالبناء الثقافي للمجتمع ألا وهما:

أ - **الأهداف المحددة ثقافيا** من جهة.

ب- **الأساليب النظمية لتحقيق هذه الأهداف** من جهة ثانية.

ومنه فإن في المجتمع جيد التكامل نجد تكاملا، وتناغما، بين الأهداف والأساليب. ذلك أن كلا من الأهداف والأساليب تجد تقبلا من أفراد المجتمع ككل. أي أن التكامل عند "ميرتون " يدل على العلاقات القائمة بين أجزاء النسق، أي هناك تكامل في المصالح، وهو برأيه يمثل حالة الاتساق بين الأهداف أو الغايات، والوسائل النظامية، وأما درجة تكامل النسق الاجتماعي فتختلف على ضوء التوازن القائم بين الوسائل والغايات.

ومنه فإن القبول الجمعي للغايات والوسائل يخلق حالة من التوازن والتناغم بين هذين الجانين - جانب الأهداف وجانب الأساليب - للحياة الاجتماعية. وهو ما يطلق عليه مصطلح "الامتثال". أما رفض الوسائل، أو رفض الأهداف، أو رفض كليهما، فيؤدي إلى ظهور **أحد الأنماط السلوكية الأربعة (04)** التالية، والمعبرة عن حالة انعدام التكامل، وهي:

- **التجديد أو الابتداع innovation**: وهي حالة قبول الهدف ورفض الوسيلة (الأسلوب).

- **الطقوسية**: في حالة قبول الوسائل وعدم قبول الهدف (انخفاض الطموح).

-**التراجعية أو الانسحابية**: في حالة عدم قبول الاثنين معا، أي عدم القبول بالوسائل والهدف مثلما في (حالة التشرد والإدمان)

-**العصيان أو التمرد:** في حالة تحول الأهداف والوسائل، وظهور نمط جديد للتكامل بين أهداف جديدة ووسائل جديدة.

جدول رقم (01): يوضح أنماط التكيف الخمسة

نمط التكيف	الأهداف الثقافية	الأساليب
الامتثال	+	+
التحديد	+	-
الطقوسية	-	+
الانسحابية	-	-
التمرد	+	+

النظرية الماركسية المحدثة

تمهيد

يمكن القول بأن كتابات أصحاب النظرية الماركسية المحدثة قد جاءت كرد فعل على كتابات أصحاب النظرية البنائية الوظيفية الذين تجاهلوا مظاهر الصراع الاجتماعي، والصراع القائم على التميز العنصري، والآثار الاجتماعية ومظاهرها السلبية للبيروقراطية والتصنيع لا سيما في المجتمعات الغربية كمحاولة لوضع حلول إصلاحية لمعالجة المشكلات المعاصرة، وعلى رأسها مشكلات التصنيع والتحضر في المجتمع المعاصر.

1- عوامل نشأة الماركسية المحدثة

يمكن تفسير نشأة النظرية الماركسية المحدثة بإرجاعها إلى عدة عوامل منها:

1 - محاولة تقديم التبرير الذي يرى بأن علم الاجتماع الأمريكي يستطيع أن يطور نفسه ليدرس الصراع والتغير الاجتماعيين. أي أن يخرج من تحت سيطرة الاتجاه البنائي الوظيفي، الذي شدّد على فكرة الاستقرار، والتوازن، والتكامل بين أجزاء النظام، أو البناء الاجتماعي من جهة، ومن سيطرة دائرة النظام والسيطرة الأيديولوجية من جهة ثانية.

2 – شروع علما الاجتماع الغربيون أمام الانتشار الواسع للنظرية الماركسية وخاصة بين الشباب في الاهتمام بدراسة الصراع، في محاولة منهم لإثبات أن نسقهم النظري، قادر على استيعاب فكرة الصراع باعتبارها فكرة أساسيه في النظرية الماركسية. حتى أن أغلب رواد هذه النظرية، أو المدرسة الفكرية حاولوا أن يربطوا بين البنائية الوظيفية، والماركسية في نسق نظري واحد، وهو ما دفع بالكثيرين من مؤرخي النظرية السوسيولوجية، إلى تسمية هذا الاتجاه في النظرية السوسيولوجية بالاتجاه التوفيقي.

3- محاولات نقد كل من البنائية الوظيفية، والماركسية، لإفراط كل واحدة منهما، في التركيز على بعد واحد من أبعاد الحياة الاجتماعية، وإهمال البعد الآخر، على غرار محاولة لويس كوزر" وفان دن برج" ثم محاولة "رالف دارندوف" الذي قدم نقدا مبكرا في علم الاجتماع الغربي.

2 - أهمية النظرية الماركسية المحدثة:

لعل أهمية النظرية الماركسية المحدثة داخل النظرية السوسيولوجية تنبع من الاعتبارات التالية:

أ - أن أصحاب النظرية الماركسية المحدثة قد سلكوا اتجاها مغايرا للاتجاه الذي كان قد سلكه أصحاب نظرية النسق، فحتى وإن ارتبط بعض منظريها بنظرية النسق، إلا أنهم قد دخلوا معها في نقاش نقدي.

ب- ارتباط هذه النظرية بفترة تاريخية محددة، امتدت من منتصف الخمسينيات، وحتى قرب نهاية الستينات، من القرن الماضي، حيث اعتقد أصحابها أن إسهاماتهم سوف تخرج عام الاجتماع المرتبط بنظريه النسق من مأزقها النظري الذي وقعت فيه نتيجة شدة اهتمامها بالنظام العام، وبالتكامل داخل النسق.

جـ- أن إسهامات أصحاب هذه النظرية قد تركت تأثيرا واضحا على البحوث الامبريقية بوجه خاص، فقد ظهرت على إثرها العديد من البحوث التي لم تهتم بدراسة الاستقرار، وإنما تجاوزته إلى دراسة الصراع أيضا، وبنفس القدر من الأهمية.

وفيما يلي أهم الإسهامات النظرية لبعض ممثلي أو رواد النظرية الماركسية المحدثة.

3- أهم ممثلي النظرية الماركسية المحدثة:

لعله من الواجب الإشارة في هذا المقام إلى وجود العديد العلماء، أو المنظرين، لهذه النظرية، إلا أن آراءهم كانت امتداد لبعض آراء كل من: "ديفيد لوكود"، "رالف دارندوف"، و"لويس كوزر" ومن بين هؤلاء على سبيل الذكر لا الحصر: "بيرسي كوهين" الذي انتقد نظرية " لوكود" وقدم بديلا لها، و"فان دن برج" الذي انتقد نظرية دارندروف.

3-1: لويس كوزر L. Coser ووظائف الصراع:

" لوليس كوزر " عالم اجتماع ألماني ولد في 27 نوفمبر سنة 1913 بألمانيا وتوفي في 08 جويلية 2003 بـ و.م.أ. في العشرين من عمره توجه إلى فرنسا كمنفي. عمل في عده مهن لتوفير متطلبات حياته. في سنه 1936 عمل سكرتيرا بأحد المكاتب التمثيلية لشركة كانت لها وساطة أمريكية، مما سمح له بمتابعه الدراسة في جامعة السوربون. ومع قيام الحرب العالمية الثانية اضطر لمغادرة فرنسا والهجرة إلى أمريكا.

في عام 1956 نشر كوزر دراسة له بعنوان " وظائف الصراع الاجتماعي The Functions Of Social Conflict " حيث أعاد الاهتمام بنظرية "جورج زيمل" (1857 - 1918) الذي اهتم في كتاباته بوظائف الصراع سواء كانت إيجابية أو سلبية. فقد ميز" زيمل " بين قوتين أو عمليتين من عمليات التفاعل

الاجتماعي ألا وهما: المنافسة والصراع. وقد رأى بأن المنافسة شكل من أشكال الصراع غير المباشر، وأما وظائفها فإيجابية باستمرار. في حين أن الصراع الذي يكون بشكل مباشر، ويتحكم في أهدافه أحد طرفي الصراع، فقد تكون وظائفه سلبية، كما قد تكون إيجابية، وقد تكون كليهما معا. وكذلك الحال مع أفكار " جورج سيمبسون" الذي كان قد نشر دراسة عن " الصراع والمجتمع المحلّي" في عام 1937 ربط فيها بين أفكار "زيمل" عن الصراع والمنافسة، وأفكار " دوركايم" عن التكامل الاجتماعي. حيث اهتم "سيمبسون" بالطابع التكاملي للصراع، وما يسهم به من وظائف في التنظيم الاجتماعي. وقد قسمه إلى **نمطين من الصراع** هما: **صراع مشترك** وهو ***الصراع الموجه إلى خارج الجماعة***، **وصراع غير مشترك** وهو ***الصراع الذي يحدث داخل المجتمع***، أو بين مكونات المجتمع نفسه، وهو صراع يسهم في النهاية او في محصلة الأمر في تحقيق التكامل الاجتماعي بين أجزاء المجتمع المحلي. كذلك تأثر" كوزر" بالوظيفية، وحاول أن يربط فكرة الصراع بفكرة التكامل والتوازن مثله في ذلك مثل "سيمبسون".

يعرف " كوزر" الصراع الاجتماعي في كتابه: الاجتماعي في كتابه: " وظائف الصراع الاجتماعي" بأنه: نضال حول قيم، وأحقية المصدر، والقوة، والمكانة النادرة، حيث يستهدف الفقراء المتخاصمين، من خلال تحييد منافسيهم". (يتضح من خلال تعريفه للصراع الاجتماعي، أن "لويس كوزر" وهو يضع نفسه في قلب نظرية الصراع، يفرغ مفهوم القوة من محتواه الماركسي، لا بل وتأثره بطرح "زيمل" الذي اعتبر الصراع عملية من عمليات التفاعل الاجتماعي.

لقد كانت دراسة " كوزر" للصراع الاجتماعي موجهة نحو فهم وظائف الصراع الاجتماعي، وكيف يساعد على تحقيق التكامل في المجتمع، وهنا تحديدا يظهر تأثره العميق بطروحات الفكر الوظيفي. إذ يعتقد بأن الصراع داخل الجماعة، إنما يساهم في إقامة الوحدة، والاتساق أو التماسك الاجتماعي Sociale Cohésion، عندما تكون الجماعة مهددة بالمشاعر العدائية والمتعارضة بين أعضائها. ففائدة الصراع تكمن في تحقيق التكيف الداخلي على نمط المسائل المتصارع عليها، ونمط البناء الاجتماعي الذي يظهر داخله الصراع.

ومنه فالصراع الاجتماعي حسب ما ذهب إليه كوزر" مهما تعددت أنماطه، وقنواته يساهم بالمحصلة في تحقيق الوحدة، والاتساق، أو التماسك، والتوازن الاجتماعي. ذلك أنه يعمل باستمرار

على إعادة تكييف المعايير، وبناء القوة داخل المجتمع، بما يخدم البناء الاجتماعي. أي أن فائدة الصراع تكمن في تحقيق التكيف الداخلي للنسق الاجتماعي.

3-1-1- أنماط الصراع الاجتماعي عند "كوزر"

ميز " كوزر " بين نمطين متمايزين من الصراع الاجتماعي هما: الصراع الداخلي، والصراع الخارجي وكلاهما مرتبط بالبناء الاجتماعي.

أ/ الصراع الداخلي:

يحدث هذا النمط من الصراع داخل البناء الاجتماعي، وهو يرتبط بالأهداف، والقيم، والمصالح الرئيسية للجماعة، وهذا هو الذي يؤدي إلى تحقيق التكامل داخل البناء الاجتماعي. كما قد يرتبط بالقيم المتنافسة المتنافرة، حيث لا يتفق طرفا الصراع على مجموعة من القيم، التي تقوم عليها شرعيه النسق الاجتماعي وهنا يؤدي هذا الصراع، إلى تهديد البناء الاجتماعي وانهياره، إن لم يتمكن البناء من تحمل هذا الصراع ومن أن يشكله داخل نظمه. فدرجه الانتظام المعياري للصراع داخل النسق، هي الأساس الذي ميّز به "كوزر" الصراع الداخلي. بمعنى أن الصراع الداخلي يمكن أن ينتظم في معايير، ويكون صراعا وظيفيا يؤدي إلى التكامل، كما يمكن أن يكون على العكس من ذلك، أي لا ينتظم في المعايير التي يفرزها النسق، فيصبح صراعا لا وظيفيا يهدد البناء الاجتماعي، بل وقد يؤدي إلى انهياره.

ب / الصراع الخارجي:

ويقصد به "كوزر" صراع جماعة مع الجماعات الخارجية. ومثل هذا الصراع يزيد من التماسك الداخلي لكل جماعة، ذلك أنه يوجه طاقات، وقوى الجماعة نحو الجماعة الخارجية. وفي هذه الحالة تخف حدة الصراعات الداخلية، أو تقل إلى أقصى درجاتها، أما إذا ما ظهرت فإنها ستؤدي إلى انهيار الجماعة بالنظر إلى انقساماتها، أو انشقاقاتها الداخلية، وبالتالي هزيمتها.

3 - 1 - 2: البناء الاجتماعي ودرجة تشكله النظامي:

يشير "كوزر" في معرض تحليله للصراع الاجتماعي، إلى أن الأبنية الاجتماعية تختلف في درجه تحملها للصراع، أو في درجة تشكله النظامي. من ذلك فإن الجماعات المترابطة التي تتمتع بدرجة عالية من التفاعل والاندماج الشخصي في البناء الاجتماعي تميل لكبت الصراع، الامر الذي يؤدي إلى تراكمه ولذلك فهو عندما يظهر يكون صراعا عنيفا. ومثل هذا البناء الاجتماعي، أو هذه الجماعات، تختلف

عن الجماعات الانقسامية التي يتسع بناؤها لصراعات متعددة، أين تتحرك طاقات أعضاء هذه الجماعات باتجاهات عديدة، فهي - طاقات الجماعة - لا تتجمع في خط صراعي واحد، وهو ما يكشف عن مرونة تتميز بها مثل هذه الجماعات، التي تسمح بأنواع متعددة من الصراع، تساهم من تحقيق التوازن والاستقرار بالنسبة للبناء الاجتماعي.

نفهم مما تقدم أن " كوزر" لا ينظر للصراع الاجتماعي، باعتباره يشكل خطورة على البناء الاجتماعي فالخطورة في الصراع تكمن في الظروف المحيطة بالصراع، وتحديدا في عدم وجود ممرات عديدة تسمح أو تفيد في تصريف أو تنفيس هذا الصراع.

وبمعنى آخر فإن " كوزر" يرى بضرورة أن يتوفر البناء الاجتماعي على الممرات التي تفيد في خفض أو تصريف الصراع الاجتماعي. ذلك أن ما يهدد البناء الاجتماعي، هو جموده، وعدم مرونته، وتحديدا عدم توفره على الخطوات، أو الممرات، التي تفيده في تفريغ الصراع وتحمله، فإعطاء الصفة النظامية للصراع، أو تشكله النظامي، وتوفير القنوات، والوسائل التي تكفل التعبير عنه يساهم في قدرة هذا النسق أو ذاك، على تحقيق التوافق، والتجانس بداخله.

ومنه فإن المجتمعات التي تعتمد فيها كل جماعة على الأخرى، إلى جانب وجود الخطوط الصراعية المتقاطعة، تعمل على ربط أجزاء النسق الاجتماعي ببعضها البعض. أي أن الصراع الذي يحدث بداخل المجتمعات المفتوحة يعمل على التخفيف من حدة الصراع بين الأطراف المتناحرة، وعلى تحقيق الترابط والوحدة فيها من جهة، وعلى إعادة المعايير القائمة فيها، أو على ظهور معايير أخرى جديدة من جهة ثانيه. ثم انه - الصراع - يعمل أيضا على تأكيد قوة المصالح المتعارضة داخل البناء الاجتماعي، مما يسمح بخلق حالة من التوازن المستمر في بناء القوة. بل وهو فوق ذلك يؤدي إلى تقليل العزلة بين الجماعات، والأحزاب، مما يسمح بخلق الترابط فيما بينها، بغض النظر عما تحمله من مشاعر عدائية تجاه بعضها البعض، وعلى هذا النحو تتم بالمحافظة على الحدود الفاصلة بين هذه الجماعات، فالصراع في مثل هذه الحالة، يؤدي إلى تحديد مركز كل جماعة فرعية داخل النسق، وحدود العلاقات بين مختلف الجماعات.

3-1- 3: بعض الانتقادات الموجهة لـ "لويس كوزر"

لعل من بين أهم الانتقادات التي وجهت لـ "كوزر" هي تلك التي ترى بأنه يستخدم المصطلحات والافتراضات الوظيفية الغامضة والإشكالية دونما نقد أو تمحيص. فهو على سبيل المثال في اهتمامه

بوظائف الصراع، يركز اهتمامه على وظائفه الايجابية أكثر مقارنة بالسلبية منها أو اللاوظيفية، من منطلق سعيه الى التأكيد على التوازن في المجتمع، بالتأكيد على الجانب الايجابي للصراع، وكيف يسهم في استمرارية الجماعات الاجتماعية، العلاقات، والأنساق الاجتماعية، وتكيفها.

زد إلى ذلك أن "كوزر" في تعريفه للصراع الاجتماعي يركز على الفرقاء المتصارعين على القيم النادرة حيث يسعى كل طرف منهم إلى تحقيق المزيد من مصالحه على حساب مصالح الآخرين، وكأن قد "كوزر" نسى أو تجاهل في تعريفه للصراع الاجتماعي توضيح، أو شرح الجوانب السلبية، والايجابية على حد سواء في الصراع الاجتماعي. وكذلك صعوبة تحديد، أو توضيح ما إذا كان الصراع الاجتماعي بين المجموعات المشكلة للمجتمع بوصفها مكونة من فردين أو أكثر مفيد حقا للنسق ككل. من ذلك مثلا إذا كان تكرار المشاجرات بين الزوج والزوجة، وتعمق الخلافات بينهما، ولجوئهما إلى حلها، دون اللجوء إلى الطلاق، فإن كل ما يمكن تأكيده في مثل هاته الحالة، هو استمرار نسق الأسرة الذي لم يتعرض للانهيار، لكنه لا يمكن الجزم بأية حال من الأحوال، ما إذا كان هذا الصراع وظيفيا، أو لا وظيفيا بالنسبة للأسرة، وكل ما يمكن أن نعرفه عن هذا الصراع، وما يترتب عنه بالنسبة للزوج والزوجة والأطفال، وكذلك الأمر بالنسبة للأنساق الاجتماعية الأكبر والتي تتكون من مجموعات عديدة ذات مصالح مختلفة ومتصارعة.

زد إلى ما تقدم أن " كوزر" في معرض إعادته صياغة أفكار" زميل" لم يكن أمينا مع النصوص الأصلية. ومنها فكرة المعارضة عند "زميل" التي لم يحدد ما إذا كانت مسألة جيدة بالنسبة للعلاقة، فكل ما قصده أن المعارضة تخدم حاجات الفرد وتشبعها. فهذه العناية بالمعارضة والقهر، ونتائجها على الفرد، تختفي في صياغة " كوزر" الوظيفية، عندما ذهب إلى القول بأن عمليه الصراع تؤدي وظائف ايجابية إلى المدى الذي يحافظ على استمرار العلاقة، تحت تأثير ظروف التوتر، والضغط، بما يحول دون انحلال الجماعة وتفتتها. ثم وفوق ذلك كله الصياغة الوظيفية في إستخلاصات كوزر" التي جاءت غير مرضية، ولا مقنعة نظرا لتجاهلها الواقع الاجتماعي وتعقيداته.

2-3: رالف دارندورف Ralf Dahrendorf

هو فيلسوف وعالم اجتماع ألماني، ولد في ألمانيا في 01 ماي عام 1929، وتوفي في 17 جوان 2009. حصل على شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع من جامعه هامبورغ الألمانية، ثم شهادة دكتوراه ثانيه من جامعة لندن عام 1957. نشر عدة مؤلفات منها كتابه الأشهر: "الطبقة والصراع الطبقي

في المجتمع الصناعي" " Class and class Conflict in an industrial Society" الذي تظهر فيه نظريته حول الصراع، والذي نشر أول مرة سنة 1959.

يوضح " دارندورف" في هذا الكتاب بأنه لا يتنكر للطروحات الوظيفية سواء كانت تلك التي وضعها بارسونز، أو غيره من البنائيين الوظيفيين، وهو إذ تأثر بأفكار ماركس التي تقول بوجود صراع الطبقي فإنه لا يعتقد بأن هذا الصراع هو بين الطبقة العمالية وطبقة الرأسماليين أو أرباب العمل.

يوصف "دارندورف" بأنه واحد من أفضل الممثلين المعاصرين لما يعرف بنظرية الصراع، وذلك منذ أن صدر كتابه " الطبقة والصراع الطبقي في المجتمع الصناعي" وهو في طرحه على النقيض من "كوزر" الذي اهتم بمفهومات الوظيفة والتكامل، والاندماج، فـ "دارندورف" ينادي بضرورة إعادة توجيه علم الاجتماع، إلى الاهتمام بمشكلات: التغيير، الصراع، والقهر، التي ينطوي عليها البناء الاجتماعي وبصفة خاصة في المجتمعات الكلية أو المجتمعات الشمولية، أو القهرية.

3 - 2 – 1- الافتراضات الأساسية في نظرية الصراع والقهر عند "دارندورف

بعد أن يطرح " دارندروف" الافتراضات الأساسية للوظيفية والتي تقول بـ:

أ - أن المجتمع يتضمن بناءا ثابتا نسبيا من العناصر.

ب - أن هذه العناصر متكاملة فيما بينها.

جـ - أن كل عنصر يؤدي وظيفة تدعم بقاء النسق.

د – أن أي بناء اجتماعي يرتكز على إجماع قيمي بين أعضائه.

يذهب لتقديم نموذج مُعَارِض لهذا النموذج الوظيفي، الذي لا يخبرنا، إلا بصوره بسيطة جدا، عن وجود القسر في النسق، ألا وهو **نموذج نظرية القهر** الذي يقوم على **الافتراضات** التالية:

أ – أن كل مجتمع عرضة لعمليات التغيير.

ب- أن كل مجتمع يتضمن الصراع واللا اتفاق وهو عملية شمولية.

جـ- أن كل عنصر يسهم في عدم التكامل داخل النسق ويؤدي إلى التغيير.

5 - أن كل مجتمع يرتكز على قهر بعض أعضائه للبعض الآخر.

يتبين من جملة الافتراضات السابقة، أن "دارندورف" يرفض مسلمات البنائيين الوظيفيين، ويذهب إلى ما ذهب إليه المنظور الماركسي الذي يرى بأن الصراع كامن في كافة النظم الاجتماعية، ولكنه على خلاف المنظور الماركسي يستبدل مفهوم علاقات الإنتاج بمفهوم علاقات السلطة. محاولا بذلك

الجمع بين مفاهيم أو مسلمات الوظيفية ومسلمات الماركسية، ولذلك فهو الآخر شأن سابقيه في تاريخ علم الاجتماع الغربي يبدأ بمحاورة "كارل ماركس" محاولا، بالمناسبة تفنيد ودحض النظرية الماركسية إمبريقيا ونظريا.

وكأن "دارندورف" يوجه دعوة إلى إعادة صياغة النظرية السوسيولوجية، والخروج بها مثلما يقول من عالم اليوتوبيا، الذي يبدأ بالتعرف على الحقائق المثيرة للاهتمام في الواقع الاجتماعي، وتناول المشكلات التي تفرزها الحقائق، من خلال تبني نموذج الصراع الذي يتميز بكفاءة امبريقية، وقدرة على دراسة التغير والصراع الذي هو القوة الخلاقة المصاحبة له.

إن "دارندورف" ورغم تبنيه للنموذج الصراعي، لم يتجاوز في واقع الحال نموذج التوازن. فهو يرى بأن للمجتمع وجهين متساويين وهما:

- **الوجه الأول**: هو الوجه الذي يكشف عن الاستقرار والتآلف، والاتفاق العام في المجتمع.
- **الوجه الثاني**: وهو الذي يكشف عن التغيير، والصراع، والقوة، في المجتمع.

ومنه فإن التصور الواقعي للواقع الاجتماعي بحسب " دارندورف" هو تصور يتضمن بالضرورة التفاعل الجدلي بين الثبات والتغير والتكامل، والصراع.

هذا وحتى يتمكن " دارندورف" من بناء نظريته في الصراع، فقد رأى بضرورة البدء بتفنيد، أو نقد النظرية الماركسية باعتبارها النظرية المسيطرة في دراسة الصراع، وقد حاول القيام بهذه المهمة في كتابه: "الطبقة والصراع الطبقي في المجتمع في المجتمع الصناعي" لاعتقاده بأن النظرية الماركسية حول الصراع الطبقي لم تعد ملائمة لدراسة بناء المجتمعات الصناعية الحديثة.

3-2-2- أهم مظاهر التغيير التي طرأت على بناء المجتمعات الحديثة من وجهه نظر دارندورف

يرى " دارندورف" بأن من أهم مظاهر التغيير التي طرأت على بناء المجتمعات الحديثة في محاولته لانتقاد النظرية الماركسية التي لم تعد قادرة حسبه على فهم بناء المجتمعات الحديثة ما يلي:

أ- انفصال الملكية عن الإدارة مما أدى إلى تقليل المسافة بين المدير والعامل.

ب- خروج الملاك من مجال الإنتاج، حيث لم تعد لهم سلطة استغلاليه على العمال.

ج- تفتت وحدة الطبقة العاملة، التي لم يعد أفرادها يشغلون مكانه واحدة، ومصالح واحدة، فقد أصبحوا يشغلون مكانات متعددة إلى الحد الذي جعل مصالحهم مختلفة إلى حد بعيد.

د- ظهور الطبقة الوسطى الجديدة، وما صاحبها من حراك اجتماعي ومساواة، الأمر الذي أدى إلى توجه الأبنية الطبقية والصراعات الطبقية إلى وجهات عجزت الماركسية عن رؤيتها.

هـ- التشكل النظامي للصراع الطبقي داخل المجتمع الصناعي من خلال مشاركة العمال في الإدارة وإنشاء لجان لقض المنازعات الصناعية.

أو كأن " دارندورف" إذ ينتقد الماركسية التي لم تعد قادرة على فهم التطورات الحاصلة في المجتمعات الصناعية الحديثة، لا ينفي بذات الوقت وجود واستمرار الصراع داخل هذه المجتمعات، والتي أفرزت مظاهر صراع مغايرة عن الأنماط التي قالت بها الماركسية. فإذا كان الصراع الطبقي ناتج أساسا عن علاقات الاستغلال التي تمارسها الطبقة المالكة لوسائل الإنتاج أو الطبقة العاملة حسب ماركس، فإنه اليوم في المجتمع الصناعي يتولد ليس عن علاقات الإنتاج، وملكية وسائل الإنتاج، وإنما من علاقات السلطة. " ففي المشروعات الصناعية في المجتمع الرأسمالي أو ما بعد الرأسمالي يوجد أفراد يفرض عليهم التحكم في أفعال الآخرين وإصدار الأوامر لهم، وأفراد يفرض عليهم التحكم في أفعال الآخرين وإصدار الأوامر لهم، وأفراد يفرض عليهم عملهم أن يتركوا أنفسهم لحكم الآخرين وإطاعة أوامرهم".

هذا ويعرف "دارندورف" السلطة بأنها:" احتمال طاعة أشخاص معنيين لقائد جماعة معينة، وهو التعريف الذي يتضمن العناصر التالية:

أ - بأن السلطة تتحدد من خلال علاقة التفوق الخضوع.

ب- يحدد الجانب الأعلى للجانب الخاضع بعض مظاهر السلوك في صورة أمر أو كبح.

جـ- يمتلك الجانب الأعلى الحق في أن يحدد هذا السلوك، فالسلطة هي علاقة شرعيه بين السيطرة والخضوع.

د- أن حق استخدام السلطة مقصور على جماعات معينة وأشخاص معينين.

هـ- يُقَابَل الفشل في إطاعة الأوامر بالجزاء فهناك نسق قانوني (أو عرفي) يضمن استمرار السلطة.

نفهم مما تقدم أن " دارندورف" يبني نظريته حول الصراع والقهر، التي ترى بأن المجتمع يتكون في الغالب من جماعتين متصارعتين إحداهما مسيطرة والثانية خاضعة، وأما الصراع بينهما فيحدث نتيجة عدم الرضا حول تقسيم الوسائل المادية (السلطة والملكية والدخل) وأيضا لوجود رموز ثقافيه، قد تكون سببا في انسجام البعض، أو سببا في صراعهم.

جدير بالذكر هنا أن " دارندورف" يعترف بأن نظريته حول الصراع الاجتماعي، تنتمي إلى النظريات المتوسطة المدى بالفهم الذي قصده "ميرتون"، في محاولة منه لتجاوز البارسونزية، والماركسية على حد سواء، واللتين رأى بأنهما نظريتين وجب على علماء الاجتماع تخطيهما كونهما على مستوى واحد من اليوتوبيا، والتوجه على عكسها نحو بناء نظريات جديدة تكون أكثر تفسيرا للواقع المعاش.

الظاهراتية / الفينومينولوجيا في النظرية السوسيولوجية

تمهيد

ازدهرت المدرسة الظاهراتيه / الفينومولوجية الأصلية في علم الاجتماع في ألمانيا والمناطق المجاورة لها والناطقة بالألمانية في أوروبا، وذلك بين الحربين العالميتين، حيث إستمرت أفكارها من فلسفة "إدموند هوسول" "E. Husserl (1859 -1938) و "مارتن هايدجر " " M.Heidegger" و "شوتز "Schutz" و"مارلو "بونتي" "Merleau – ponty "

والمفهوم الرئيسي في الفلسفة الظاهراتية هو مفهوم " قصديه الوعي " أو حيث الوعي موجه نحو الموضوع: والتي تعنى تأكيد المبدأ المثالي الذاتي: " ليس هناك موضوع بدون ذات". في حين يقوم المنهج الظاهراتي فيعتمد على مسلمتين أساسيتين هما:

أ- الامتناع عن إصدار أحكام فيما يتعلق بالواقع الموضوعي وعن تجاوز حدود التجربة الذاتية.

ب- اعتبار موضوع المعرفة نفسه الوعي الخالص وليس الوجود الحقيقي.

أي بما معناه أن أصحاب الاتجاه الظاهراتي يرون بأن معرفتنا بالعالم الفيزيقي، أو العالم الخارجي، إنما تأتي عن طريق خبرتنا الذاتية به، وهي - الخبرة الذاتية - التي تمكننا من إدراك جوهر الأشياء. ذلك أن الفلاسفة الظاهراتيون يبدؤون بتجاهل مسألة الواقع الموضوعي، أو بوضعه بين قوسين على حد تعبيرهم حتى يمكنهم توجيه اهتمامهم للواقع كما يوجد في الوعي أو الشعور. وفي عبارة أخرى فإن الظاهرة موضوع الدراسة تكون هي تلك التي تعبر عن نفسها بطريقة مباشرة في الوعي أو الشعور، والوعي أو الشعور هو وسيلتنا لفهم العالم. فأي فهم لشيء موضوعي لا يتحقق إلا من خلال وعينا بذلك الشيء، ولا وجود للواقع مستقلا عن وعينا أو شعورنا، ثم إن جوهر الأشياء هو ما يفهمه العقل الإنساني من خلال الوعي عن طريق خبرته بالعالم، وأما الموضوعية فتحقق عن طريق الذاتية، أي عن طريق وعينا وشعورنا.

نفهم مما سبق أن أصحاب الاتجاه الظاهراتي يركزون اهتمامهم على دراسة العملية التي نفهم بها العالم وليس على تفسير هذا العالم. ذلك أن تفسير العالم باعتباره شكلا من أشكال الفكر، يصبح في حد ذاته موضوعا للدراسة.

أما من أشهر أصحاب هذا الاتجاه فى علم الاجتماع فنجد "ماكس شيلر" " M. Scheler" (1874–1938) "ألفريد شوتز" A. Shutz" "جوفمان " "Goffman" و"جارفينكل" Gan fickael. وأما من تأثروا

بهذا الاتجاه في علم الاجتماع فنجد "بيتر برج" و"جاك دوجلاس " J. Douglas و "آرون سيسوريل" "A. Cicourel و "جورج غورفيتش" " G.gurvitch"

1- الجذور البنائية والفكرية للاتجاه الظاهراتي:

لقد تعرض علم الاجتماع بصفه عامه والنظرية السوسيولوجيه بصورة خاصة، وما تضمناه من قضايا منهجيه ونظرية، إلى الشك والنقد من قبل الشباب من دارسي علم الاجتماع الذين لم يقتنعوا بما درسوه عن الوضعية والامبريقية والوظيفية، وخاصة مع التطورات والتغيرات العميقة التي خبرتها المجتمعات الغربية بعد الحرب العالمية الثانية، ثم الأزمات التي عرفها العالم الرأسمالي. حيث أكتشف الكثير من الشباب من أبناء الطبقة الوسطى على وجه الخصوص زيف الوعود الليبرالية في إتاحة الفرصة للجميع للنجاح في المجتمع، الأمر الذي دفع بالشباب المثقف وبخاصة من المتخصصين في العلوم الاجتماعية إلى رفض الاهتمام بدراسة وفهم الواقع الموضوعي، وارتدوا إلى الاهتمام بالذات من الداخل، وكانت الفلسفة الظاهراتية معينا لهم في تحقيق ذلك. هذه الفلسفة التي تجد جذورها أو امتداداتها في فلسفة " كانط " Kant" الذي كان قد ميّز بين مفهوم الظاهرة، ومفهوم الشيء في ذاته، حيث الظاهرة: هي: الشيء أو الحدث كما يبدو لنا من خبراتنا، وأما الشيء في ذاته فيوجد مستقلا عن قدراتنا المعرفية. ثم إن الشيء في ذاته ليس معروفا لنا ولكن الظاهرة هي الشيء الذي تمكينا معرفته. (نعيم، 2006، ص ص 230-231). وكذا في فلسفة " إدموند هوسرل" " E- Husserl" التي قامت في أحد جوانبها على مناقشة الغرض التجريبي الذي يفصل بين عالم المادة الخارجي وبين الذات التجريبية. ويطلق "هوسرل" على الاتجاه الذي يفصل بين الذات والموضوع وبين الذات التجويد أو بين الوعي، أو عالم الشعور وعالم المادة الاتجاه الطبيعي.

فـ " هوسرل" الذي لا ينكر وجود هذا الاتجاه الطبيعي، أو العالم المادي يريد أن يبدأ الفلاسفة من بدايات مطلقه لا تنطوي على أي فروض، حيث يكون شعور الفيلسوف الباحث هو الحكم النهائي. فالظواهر هي الشعور الخالص، أو أفعالنا العقلية، أو هي الخيرات القصدية الموجهةّ للأفعال العقلية. أي أن الفيلسوف لا يبدأ بأية أفكار قبليه مسبقة، لكنه يصف الظواهر كما تبدو في إدراكه أو شعوره أو خبراته القصدية. ومن ذلك فإن العالم الخارجي يكون غير منفصل عن شعوري وإدراكي

كشخص يعيش فيه، وبالتالي فليس للمعرفة أي معنى إن لم تكن بمستقاة من تصوراتي، وخبراتي، وأفكاري حول عالم الظواهر.

أي أن "هوسرل " يرى بعدم وجود عالم موضوعي خارج عنا قابل للمعرفة، بل إن كل فرد يصنع واقعه بتصنيف وفرز خبراته الشخصية. ومنه فإن المعاني المشتركة للواقع تظهر عندما تتفق المعاني أو التعاريف الفردية أو الذاتية. ومن ذلك فإن " هوسرل " يرى بأن أحد الأغراض الأساسية للفلسفة يكمن في تحديد المعاني المشتركة في جماعة ما، وكيفية ارتباط هذه المعاني بالثقافة الأشمل. مثال: ما قد يفسره فرد ما بأنه مرض يفسره فرد آخر بأنه عقاب "روحي" ويفسره ثالث بأنه مجرد سوء حظ، ومن ثم نجد مثلا تفسير خبره شخصية على أنها " مرض " هو ما يميز الثقافة العلمية الغربية في حين أن التفسير في ضوء العقاب " الروحي" هو تفسير يتناسب وثقافة المجتمعات التقليدية.

هذا ولقد قام "الفريد شوتز"(1899- 1959) بتطبيق مدخل "هوسرل " على علم الاجتماع وتطويره. ومثلما ذهب إليه "هوسرل" أغفل "شوتز " قضية العالم أو الواقع الموضوعي، واهتم بكيفية قيام الفاعلين الاجتماعيين بإعطاء معنى لخبراتهم وتصنيفها، بما في ذلك تأويل أفعال الآخرين. فـ "شوتز" يعتقد بأن هذا هو الهدف من علم الاجتماع، وليس تفسير السلوك الإنساني باعتباره ناتج عن أسباب خارجية، ثم أن الفاعلين الاجتماعيين لا يبتدعون المعنى، ويؤولونه دون الإشارة إلى الآخرين، بل على العكس، ذلك أن الجماعات وفق ما ذهب إليه "شوتز تنتج مع مرور الوقت رصيدا من المعاني المشتركة، وهي تضمن لأعضاء هذه الجماعات من أن يفهموا بعضهم البعض، وأن يتوقعوا أفعالهم.

من ذلك نجد بأن مفهوم " التصنيف" Typification" مفهوم مركزي في فكرة رصيد المعاني المشتركة حيث التصنيف عبارة عن فئة تصورية تستخدمها الجماعة لوصف الظواهر (الأشياء) المتشابهة، وفي هذا تختلف التصنيفات باختلاف الثقافات، واختلاف هذه التصنيفات يعكس اختلاف طريقة فهم وتفسير الظواهر.

هذا وقد ميّز "شوتز" بين المنظور الطبيعي لعضو الجماعة الاجتماعية، والمنظور الظاهراتي للملاحظ الخارجي. فالمنظور الطبيعي يعكس المدخل الفطري والبديهي الذي يسلم به أعضاء جماعة اجتماعيه معينة، بينما يسمح المنظور الظاهراتى الذي يتبناه الملاحظ الخارجي إلى وصف أسلوب مياه جماعة ما إلا أنه - الملاحظ الخارجي - يقوم بهذه المهمة من زاوية الفاعلين، لا من زاوية منظور

تفسيري خارجي في معارضة لـ" فيبر" الذي أخفق برأي " شوتز" في تطوير مدخل سوسيولوجي يعتمد كليا على معاني الفاعلين الاجتماعين، ولذلك حسب "شوتز" ظلت أنماط الفعل الاجتماعي عند "فيبر" بعيدة كل البعد عما يفكر فيه الفاعلون ويفعلونه.

2- القضايا التي يقوم عليها علم الاجتماع الظاهراتي:

إن علم الاجتماع الظاهراتي أو الفينومنيولوجي باعتباره أحد الاتجاهات في علم الاجتماع اتجاه يعارض الكثير من القضايا التي يقوم عليها علم الاجتماع في صورته الوضعية، التي امتدت من "أوغست كونت" وإلى غاية " بارسونز". وأما أهم القضايا التي يقوم عليها فيمكر حصرها في:

أ- يكمن الأساس الفلسفي لعلم الاجتماع الفينومينولوجي أو الظاهراتي في فلسفة الظواهر التي طورها « هوسرل " وأعاد صياغتها ألفرد شوتز".

ب- أن مادة التحليل الظاهراتي هي خبرة الحياة اليومية، وعالم الحياة المعطى مثلما يتجسد من خلال تركيبات من المعرفة التي يتم تكوينها ونقلها اجتماعيا ودور الأبنية التنظيمية والنظامية في ذلك.

ج- ينظر علم الاجتماع الظاهراتي للفاعل الاجتماعي على أنه يمتلك عنصر المبادرة في الفعل الاجتماعي وبأنه في علاقة جدلية مع الواقع. فهو خالق هذا الواقع مثلما هو نتاج له في ذات الوقت.

د- أن علم الاجتماع الظاهراتي يرتكز على مبادئ النزعة الفردية الميثودولوجية والاتجاه النسبي، ذلك أن الواقع والرشد يتحدد في ضوء المعاني التي يضفيها عليها الفرد في مواقفه وأفعاله.

هـ- لا يعتقد علم الاجتماع الظاهراتي في صحة الافتراضات السببية لكنه يعتمد على تصور الحياة الاجتماعية من خلال تصورات الأفراد وأفكارهم عنها.

يتضح من جملة القضايا، أو الموضوعات، التي يهتم بها علم الاجتماع الظاهراتي، بأنه قد أهمل دراسة تصرفات وأفعال الناس في المجتمع، واتجه بدلا من ذلك إلى دراسة روايات الناس حول ما يفعلونه وما يقولوه عما فعلوه وما يفعلونه. ثم أنه لا يناقش مطلقا مفاهيم مثل: القوة، السلطة، التدرج الاجتماعي ولكنه يناقش بدلا منها إحساس أو شعور هؤلاء الناس بالقوة والسلطة، وما إلى ذلك، بل إن علم الاجتماع الظاهراتي لا يناقش ولا يهتم بدراسة مصادر مثل هذا الإحساس، أو الشعور، والمعاني التي لدى الأفراد ولا كيفية التحكم فيها أو تغييرها.

زد إلى ذلك أن علم الاجتماع الظاهراتي إذ يركز على دراسة العقل بوصفه عمليه واعية إيجابية، حيث يرى بأن دراسة النشاط يجب أن تتم عن طريق دراسة القصد عند الفرد، إنما يوجه بؤرة اهتمام النظرية الاجتماعية من البحث في الأسباب، إلى البحث عن النوايا، أو المقاصد، أو المعاني التي توجد في عقول الناس.

3- رواد الاتجاه الظاهراتي / الفينومينولوجي في علم الاجتماع.

3-1-ماكس شيلر: (1874 - 1928)

كان ماكس شيلر من أشد المعجبين بالطبقة الأرستقراطية التي كان يرى في أعضائها القادة الطبيعيين للمجتمع. وكان يحتقر الطبقة الوسطى ويرى بأنها فريسة لما تعانيه من حقد، وبخاصة القطاع الأدنى منها، كما كان يمجد الصفوة والاقطاعين والقادة العسكريين، ويزدري الفردية، والنفعية، والعقل المطلق. كما كان "شيلر" يبحث عن منطلق اجتماعي تمارس الصفوة من خلاله زعامتها، كما كان من الناحية السياسية يسعى إلى توحيد ألمانيا ضد عقلانيه فرنسا ونفعيه انجليزا، لذلك كان متحمسا بشده لتحقيق ذلك الهدف عن طريق الحرب. (نعيم، 2006 1985، ص 234) كذلك كان "شيلر" يهدف إلى تحطيم العلم يوصفه معيارا لكل المعرفة، ورأى بأن العالم - بكسر اللام- لم يحل أبدا محل الفيلسوف، والقديس. وعارض أفكار ماركس ورأى بأن علاقات الإنتاج ليست مسئولة عن تحقيق الأفكار ولكن مصالح الصفوة هي التي تفعل ذلك.

من ذلك يمكن القول بأن " شيلر" كان مهاجما شرسا للوضعية. فقد رفض تقديس العلم الذي اعتبره كخاصية مميزه للمجتمع مسئولا عن الصراعات في الحياة الحديثة وعن الأمراض الاجتماعية فيها. ثم أنه وفوق ذلك رأى بأن المجتمع يجب تحكمه الصفوة، بما في ذلك الأنظمة الرأسمالية. إذ يجب وضع الحكم بين أيدي الأصلح لذلك وراثيا، اجتماعيا، وعقليا، أي الأرستقراطية، أو إلى الطبقة الإقطاعية.

اعتمد فكر "شيلر" بصفة أساسية على التمييز الظاهراتى بين مجال القيم المثالية أو الجوهرية والوقائع الوجودية. فالوجود الفعلي يتمثل في العلاقات بين الوقائع، هذه العلاقات التي تتغير بتغير الزمن، وأما القيم المثالية فتمثل دائما مجالا آخر، هو المعاني الصادق المستلهمة دون اعتبار للزمان، وهذا التمييز بين مجال القيم المثالية أو الجوهرية، ومجال الوقائع الوجودية، هو أساس التمييز بين علم الاجتماع الثقافي من جهة، وعلم اجتماع العوامل الواقعية من جهة أخرى، ذلك أن المادة

الثقافية مثالية، وهي توجد في مجال الأفكار والقيم. في حين تمثل العوامل الواقعية جزء من الأحداث المتغيرة في نطاق الزمان. وأما المادة الثقافية فيمكن تعريفها من خلال الأهداف المثالية، أو النوايا، بينما تشكل المادة الواقعية بناء من النوازع مثل: الجنس، الجوع، واشتهاء السلطة. وفي هذا يرى "شلير" بأنه من الخطأ افتراض أن العوامل الواقعية مثل القوة السياسية، أو الإنتاج الاقتصادي تُحدّدُ بشكل مطلق المعاني. كما أنه من الخطأ الافتراض بأن الأحداث الخارجية تتمثل في تكشف الأفكار الروحية والشخصية، ذلك أن الأفكار لا تكون شيئا ملموسا له وجود واقعي، ما لم تترابط سويا بشكل ما، في صورة ميول جمعية، ويتم تضمينها في أبنية نظمية.

ومنه فهدف علم الاجتماع الثقافي هو دراسة كل ما هو مثالي، وهو بالتالي يدرس الدين والفلسفة، والفكر العلمي، والفن. في حين أن هدف علم الاجتماع الامبريقي هو دراسة، وفهم الدوافع، والقوى، التي تحدث تغيرات في الواقع. هذا مع العلم بوجود صلة انتقائية بين الأساس الحقيقي للمجتمع، وبين ما هو مثالي. وعليه فإن المهمة الأساسية هنا تكمن في اكتشاف الأساليب التي تتفاعل بها العوامل الحقيقية أو الواقعية، والعوامل المثالية. إذ هناك مراحل متتابعة للتكامل ما بين هذين المجالين مجال العوامل الواقعية ومجال العوامل المثالية، ابتداء من سيادة روابط الدم والقرابة إلى غاية التأثر بالبناء السياسي والحقائق الاقتصادية، وفي هذا كله يلعب العقل دورا متميزا حيث يؤثر على الأحداث عن طريق توجيه النوازع الفطرية. أما فيما يخص التفاعل بين العوامل الواقعية والعوامل المثالية أو المعيارية، فيتم من خلال وسيط معين، وهو الصفوة، التي تعمل على توجيه عملية التفاعل هاته، لأنها هي التي تدرك الجوهر الظاهراتي، والتي تنتشر أفكارها عن طريق المحاكاة بين الجماهير، ولذلك فإن التاريخ ليس سوى نتاج لنسق حوافز القادة في المجتمع، وما يرتبط به من روح جماعية.

هذا ويرى "شيلر" بأن هناك صور عديدة للمعرفة، أكثرها أهمية البديهيات الثقافية للمجموعة، التي تشكل المناخ الذي يتكون فيه الرأي العام. حيث ترتبط أنماط المعرفة المختلفة بمجموعات مختلفة. فكل نمط من البناء الاجتماعي له صور معينه من المعرفة التي تتناسب معه، من ذلك مثلا المجتمع المحلى الذي له رصيد محدّد من المعرفة، ثم إن هناك صله انتقائية بين الأفكار والصور النظمية، وعليه فظهور الحضارة الصناعية الحديثة في المجتمع يرتبط بالروح الفردية، على عكس الروح الجماعية التي كانت ترتبط بخط الجماعة أو المجتمع المحلي كما بالتنافس بدلا من التعاون،

وبالمعرفة العلمية والفنية بدلا من الحكمة التقليدية والاتجاه نمو العلم بدلا من اللاهوت والفلسفة.

2-3- هارولد جارفينكل H. Garfinkel (1917-2011)

يعرف اتجاه "هارولد جارفينكل" الفينومولوجي أو الظاهراتي باسم اتجاه المنهجية الشعبوية Ethnomethodology، وهو يتصف مثل غيره من الاتجاهات الظاهراتي برفض الاتجاه الوضعي في علم الاجتماع.

بدأ " جارفينكل" برفض تركيز اهتمام علم الاجتماع على دراسة المظاهر أو الأحداث والسلوكيات الظاهرة لأن ذلك باعتقاده لا يشكل جوهر الحياة الاجتماعية، داعيا بالمناسبة إلى الاهتمام بدراسة المعاني الخفية أو المستترة، أو الضمنية، التي توجد في عقول الأفراد عن مختلف المواقف الاجتماعية التي لا يفكر فيها أحد وتعتبر من الأشياء المسلم بها، ومع ذلك معني تحدد سلوكيات الناس بما فيهم العلماء، وهي المسؤولة عن وجود تفاعل اجتماعي يتسم بالثبات.

أي بمعنى أن استمرار الحياة بين الناس وتماسكها يكمن في وجود الفهم الضمني الذي يشترك فيه الناس أي أن هناك بناء من القواعد والمبادئ الاجتماعية الخفية أو الضمنية والمشتركة بين الناس، ويتصرفون وفقها دون أن يعرفوها. ولهذا فإن على علم الاجتماع الاهتمام بدراسة الأنشطة اليومية الروتينية للأفراد العاديين، بغية كشف المعاني التي وراءها، والتي تعبر عن جوهر الحياة الاجتماعية.

وفي إطار هذا الفهم يرى "جارفينكل " بأن العالم الاجتماعي يقع خارج نطاق الزمن. فهو لا يهمه أن يعرف كيف تتكون هذه المعاني عند الأفراد، أو لماذا تتكون هذه المعاني في ذهنهم في فترة زمنيه معينه دون أخرى، أو حتى لماذا تختلف باختلاف المجموعات الاجتماعية، واختلاف المكان، ولكن هدفه أن يصل إلى تعميمات عامة جدا لا ترتبط بزمن معين، ولا بثقافة معينة.

وفي عبارة أخرى فإن ما يهم في الحياة الاجتماعية برأي "جارفينكل" هو ذلك الجانب الضمني، غير المرئي فيها، والذي لا نشعر به لأنه مألوف جدا لنا. ولذلك فإن على عالم الاجتماع الكشف عنه وجعل الناس تدركه، عن طريق مخالفة تلك القواعد، أو المبادئ الخفية، أو غير المرئية، وغير المدركة بطريقة مفاجئة تجعلهم يدركون أنها هي التي تقف خلف سلوكياتنا، وتصرفاتنا، لأن مخالفة المألوف برأيه هي التي تكشف عنه، أو عن وجوده.

عموما وقبل أن ننتهي من علم الاجتماع الظاهراتي، ومن "هارولد جارفينكل" على وجه التحديد، وجبت الإشارة إلى أن هذا الأخير وقبل أن يؤسس للمنهجية الشعبية، أو المنهجية الاثنية أو الاثنوميثودولوجيا، كان إذن قد عمل هو وزملاؤه، لسنوات عديدة في أبحاث علم الاجتماع الظاهراتي، حيث كان واضحا تأثره بعدد من المفكرين من أمثال: "فيبر"،"كارل منهايم"، و"بارسونز"، ولكنه كان أكثر تأثرا بـ "شوتز" الذي كان قد نقل أفكار " هوسرل" في الفلسفية الظاهراتية إلى علم الاجتماع.

زد إلى ما تقدم، أنه وعلى الرغم من أن تعبير "الظاهراتية" يستعمل للدلالة على النهج الفلسفي الذي بدأه "هوسرل " فإنه ولاحقا انتقل هذا المفهوم إلى علم الاجتماع، وأصبح من يعتبرون أنفسهم من أصحاب هذا الاتجاه، أو من اعتبروا كذلك من قبل الآخرين، من الكثرة، والتنوع إلى الحد الذي جعلهم لا يشتركون ولا يتفقون حول مجموعة من المبادئ الموحدة، ومثال ذلك ما ذهب إليه "هيربرت سبايجيلبرج"Herbert Speigelberge"" في كتابه المعروف: الحركة الظاهراتية The movement phenomenological":" بأنه تجاوز للحقيقة إن قلنا بأن هناك اتجاهات في الظاهراتية بعدد الظاهراتيين، ولكن المؤكد، وبعد التدقيق، أن أوجه التباين فيها بينها قد تفوق على أوجه الالتقاء، حتى أن "ميرلو بونتي" قد رأى بأنه من الضروري أن يبدأ أعماله الهامة بسؤال: وما هي الظاهراتية ؟ بالرغم من أنه كان واحدا من رواد هذه النظرية أو هذا الاتجاه النظري في علم الاجتماع.

أخيرا يلاحظ نقاد الاتجاه الظاهراتي، بأن هذا الاتجاه في النظرية السوسيولوجية، أو في علم الاجتماع عموما، إذ ركز اهتمامه على دراسة المعاني، والخبرات المشتركة بين الأفراد في المجتمع، على اعتبار أنها أساس الحياة الاجتماعية، فإنه قد أهمل دراسة الاختلافات والصراعات الواقعية القائمة داخل المجتمع وهو ما يتعارض مع التحليل العلمي الواقعي للمجتمع الذي تكشف الأحداث، والوقائع التاريخية، واليومية المعاشة، بأن الصراعات تخترقه، وتمزقه.

الاثنوميثودولوجيا / المنهجية الشعبية / أو منهجية الجماعة في النظرية السوسيولوجية

تتشكل كلمة الاثنوميثودولوجي من مقطعين هما: اثنو: Ethno بمعنى جماعة أو سلالة (قومية أو لغوية أو لغوية) وميثودولوجي وتعني منهجا، وإذن فالمقطعين مع بعض يكونان المصطلح Ethnométhodology الذي وضعه هارولد جارفينكيل Garfinkel سنه 1967، عندما نشر مجموعة من المقالات في كتاب له سنة 1967 تحت عنوان " دراسات في الاثنوميتودولوجي". وهو الكتاب الذي استفاد فيه من فينومينولوجيا "ألفريد شوتز" في صياغة اتجاه جديد في علم الاجتماع في أمريكا: عندما أخذ من هذا الأخير اهتمامه بالحياة اليومية، أو بالعالم العادي، كما يظهر من خلال تصورات الأفراد، واتجاهاتهم الطبيعية.

إن الاثنوميثودولوجيا التي تأسست على يد "جارفينكل" تشير في معناها المباشر إلى دراسة أساليب الشعوب في خلق النظام الاجتماعي، لذلك يذهب بعضهم إلى تسميتها بالمنهجية الشعبية؛ أي المناهج التي يفهم بواسطتها الناس العاديين ظروف معيشتهم. وفي هذا الإطار تذهب الاثنوميثودولوجيا إلى التركيز على أن النظام العام غير موجود، ولكنه يصنع في المواقف المختلفة عبر جهود الأفراد. ومنه فإن الفعل الاجتماعي عبارة عن محاولة مجهده لإنجاز النظام الاجتماعي.

وفي عبارة أخرى فإن الاثنوميثودولوجيا وعلى خلاف الدراسات السوسيولوجية الكلاسيكية التي ركزت على بنية المؤسسات والقواعد الرسمية والإجراءات المهنية مثلا، لتوضح لنا ما الذي يفعله الأفراد في المؤسسات، ترى بأن القيود الخارجية غير كافيه لفهم، وتوضيح ما الذي يجري بحق في المؤسسات، ذلك أن هؤلاء الأفراد غير مقيدين بهذه القوى الخارجية، بل أكثر من ذلك نجد بأنهم يستخدمونها لينجزوا واجباتهم، وليخلقوا المؤسسات التي يوجدون فيها.

وبعبارة أخرى فإن الاثنوميثودولوجيا تدفع حالة نظرية الفعل الاجتماعي التي تعتقد بأن الحقيقة الاجتماعية يخلقها الفاعلون إلى أقصى حد. فاهتمامها يختلف عن اهتمام نظرية الفعل، فهي وبدلا من أن تهتم بنتيجة التفسير، تركز على كيفية الوصول إلى التفسير. فالهدف بالنسبة لها - الاثنوميثودولوجيا - هو الكشف عن الطرق التي يستخدمها الأعضاء المشتركون في أي موقف اجتماعي معين، ليوصلوا إلى بعضهم البعض، ما يعتقدون بأنه يحدث - ماذا يعني الموقف لهم - والجهود التي يبذلها كل واحد منهم ليحصل على توثيق التفسير من الآخرين. فالاثنوميثودولوجيا أو

المنهجية الشعبية أو منهجية الجماعة لا تهتم بالعالم الاجتماعي بوجه عام، وإنها بأجزاء معينة من التفاعل بين أعضائه، حيث يكون التركيز على الكيفية التي يكون بها النظام في موقف اجتماعي انجاز للمشاركين فيه.

من ذلك فإن مصطلح " الاثنوميثودولوجيا" "يعني المناهج التي يستخدمها الناس تحديدا لابتداع المعنى والنظام في الحياة الاجتماعية". وفي هذا الإطار يرى "جارفينكل " بأن المنهج الأساسي الذي يستخدمه الفاعلون الاجتماعيون لابتداع المعنى هو الاستنتاج الفطري. كما أن الاتصال والاستنتاج المشترك الناس يمكن أن يؤدي إلى تفسيرات مشتركة للخبرات أي أنهم- الناس- يتوصلون إلى فهم مشترك للأشياء، ثم إن جماعات الناس المختلفة تطور أساليبها الخاصة بها في التفكير والسلوك، وهذا ما يجب أن يكون في صلب اهتمام علماء الاجتماع.

زد على ذلك أن النظام الاجتماعي برأي " جارفينكل" يتأسس ويعاد تأسيسه من خلال قيام الفاعلين بالاتصال والاستنتاج. فالنظام الاجتماعي ليس محصلة لمعايير مفروضة من الخارج. هذا ويسجل "جارفينكل" بأنه وفي بعض المواقف الطبيعية يمكن ألا تتحقق فيها التوقعات العادية للمشاركين، إلا أنهم مع ذلك يستمرون في محاولة للخروج بمعنى لما يحدث. بمعنى أن النظام الاجتماعي عبارة عن عمليه تفاوضية، وليس شيئا مفروضا من الخارج.

وبتعبير آخر فإن الحياة الاجتماعية عبارة عن مشروع عملي يتشارك فيه كل فرد يعيش في هذه الحياة. ذلك أن الأنشطة التي يقوم بها الأفراد في الحياة العادية تكون مركبا تنظيميا عمليا. ثم إنه وعبر هذه الأنشطة يختلف الأفراد والجماعات، في مواقف الحياة اليومية، ويتحكمون فيها، بمحاولاتهم لجعل هذه المواقف قابلة للتبرير. وأما مواقف الحياة فتظهر بصورة تلقائية، من خلال توقعات تنشأ كليا، أو جزئيا في لغة الحياة اليومية التي يشترك فيها كل الأفراد بوصفهم أعضاء في نظام اجتماعي.

هذا ويعتقد أصحاب الاثنوميثودولوجيا بأنه طالما تم تعريف موقف معين فإن هذا التعريف يستمر في الوجود ما دام هؤلاء الأفراد يعيشون في نفس الجماعة. وبنفس الطريقة فإن المعنى الذي يضفيه الأفراد على موضوع معين سوف يستمر أيضا في مناسبات ومواقف مختلفة. فالمعاني والتعريفات تتشابه لاشتراك الأفراد في التعبيرات والرموز، وأما الاختلافات فتظهر لاختلافهم في الخبرات وتواريخ الحياة. أي بما معناه أن التفاعل الاجتماعي قائم على مجموعة من القواعد والطقوس، التي يسلم

بها الأفراد العاديون دون وعي من تقريبا، وهم بتسليمهم بها يكونون لأنفسهم كجماعة منهجا خاصا في الحياة لا يعونه، وعلى عالم الاجتماع اكتشافه، إلا أن هذا لا يعني أن مواقف الحياة الاجتماعية لا تكشف عن شكل معين لأشكال العقلانية، ذلك أن الأفراد يخلقون لأنفسهم مناهج عقلية رشيدة توجه سلوكياتهم.

- توجد مراجع لهذه المحاضرات